

مسئولية الرجل

قبل الزواج وبعده

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لكل منا مسؤوليات في الحياة ، يحتم عليه واجبه الإنساني تحمل أعبائها ، والعمل على الوصول بها إلى أعلى درجات السمو والكمال ، حتى يمكنه أن يكون فردا ناجحا يزهو بإنسانيته ، ويفانر بذاته كعضو عامل في المجتمع .

”وإن كان لنشأة الإنسان ومقدار ما يحصله من ثقافة وتهذيب أثر كبير في رسم طريقه في الحياة ، فالمجهود الشخصي أيضا أعظم الأثر في تعبيد ذلك الطريق والوصول بصاحبه إلى أعظم درجات المجد والرفعة .

وإنه لمن الظلم أن ننسب عبوس الحظ إلى الرجل الخامل الكسول ، وإبتسامته وأشراره إلى النشيط السعيد ، مع أن الحظ براء من هذا الخلط ، فالأقدار تريدنا دائما في صورة كاملة عظيمة ، ولكنها تترك لنا الاختيار في اجتياز طريق الحياة ، ولنا بعد ذلك ما نريد . فإما أن نعرف واجباتنا ، ونقدر مسؤولياتنا فتحميها بشجاعة وإقدام ونسير بها قدما إلى السعادة والنجاح ، وإما أن نجبن وتراجع فنرمى بأنفسنا إلى المصير المجهول الخافل بتصنوف الشقاء والآلام“ .

ومسئولية الحياة رغم صعوبتها لذيدة مشوقة لكل من يعرف جمال اللذة الحقيقية في الحياة والسعادة الحقيقية هي التي لا يصل الإنسان إليها إلا بعد أن يتحمل في سبيلها من المشاق ما يتحمل ، وبعد أن يجاهد في اجتياز عقباتها بصبر وجلد ، حتى إذا ما وصل ”في طريق أحلامه“ إلى القمة الزاهرة ؛ وقف مزهوا رغم ما أصابه من وعناء الطريق ، لينظر في اعتداد إلى ثمرة جهوده وقد آتت أكلها . . .

فلولا عذاب الأمل ما استسغنا لذته ، ولولا لذة الأمل ما عرفنا يوما سعادة الأمل في الحياة .

واعلم في هذه الكلمات البسيطة معنى ظاهرا لما غمض على هؤلاء الذين يتساءلون عما إذا كان الزواج حقا مسؤولية خطيرة ، أو هذا الذي يتساءل كيف أكون رب أسرة ناجحا ؟

إنها ولا شك أسئلة عجيبة من رجال الجيل الحديث ، إن دلت على شيء عظيم تأثرهم بأقوال بعض هؤلاء الذين لم تؤهلهم طبيعتهم أو ميولهم ليكونوا أزواجا ناجحين في الحياة أو هؤلاء الذين يشعرون بنقص في ذاتهم يصور لهم خطورة الزواج لافتقارهم إلى طبيعة الرجل الكامل فعمدوا إلى تصوير الزواج في صورة وهمية رهيبة ملأوا بها عقول بعض الناس وشوهوها بسموم أفكارهم وهم في ذلك يقولون ما قاله ثعالة في المعتقد عند ما عزز عليه الوصول إليه .

ولا شك أننا ندرك عظم حاجتنا إلى تفهم التعاليم الزوجية كي نعرف أن الزواج هو عقد قانوني بين رجل وامرأة ، يقوم على صداقة مشتركة بينهما ، ويفرض على كل منهما واجبات ومسئوليات نحو أنفسهما ، ونحو أولادهما ، ونحو الهيئة الاجتماعية أيضا ، وهذا العقد لم يعمل لتحقيق رغبات خاصة ، وإنما شرع لوضع أساس بناء العائلات .

ولما كان وجود الأسر المتينة البنيان ضروريا لخير الإنسانية ، وجب على كل فرد أن يساهم في القيام بنصيبه من هذا الواجب بعد أن يكون قد عرف حقيقة مسؤولياته وماذا يجب عليه أن يفعل في مختلف أطوار شبابه ، حتى إذا وجد أنه قد قام بدوره كاملا في الحياة ، ورأى أنه قد بلغ السن الذي يؤهله للزواج ، أقدم عليه بجرأة واعتداد وانقأ أنه سيكون ولا شك رب أسرة محترم يعتد برجولته ، ويژهو بكرامته .

فمسئوليته قبل الزواج تنحصر في إعداد مستقبله والنضال في سبيل الوصول إلى طريق النجاح بخطوات واسعة ملموسة ، ناظرا للمستقبل ، وللاستقبال فقط ، حتى يمكنه ذلك أن يرتشف من ينابيع المجد كقوسا مترعات ، ويواجه تلك الخطوة الجديدة ، خطوة الزواج بما يجب لها من الاحترام والتقدير متخذًا للوصول إليها ما يلزم من احتياطات مشرفة للرجولة الحقة .

فيعمل ما استطاع على اختيار شريكة حياته من طبقة تماثل طبقته وذات ثقافة تقل قليلا عن ثقافته أو تماثله . . .

وليس معنى هذا أن نتخذ فكرة الزواج سلما لتحقيق المآرب الشخصية ودخول البيوتات ومعرفة أسرار الأسر والتندد بها في المنتديات بين الأصدقاء والمعارف فإن هذا ولا شك يسيء إلى سمعة الرجل إساءة بالغة ، وينفر الناس منه .

وليس أحقر من رجل يعمد دائما إلى سرد القصص ، كاذبة كانت أم حقيقية عن مقامراته مع الفتيات الساذجات وعن صولاته وجولاته في ميادين العريضة والمجون .

وبهذه المناسبة أذكر أنني أعرف عائلة لا يعضى على أفرادها أسبوع إلا وهم يقيمون الدنيا ويقعدونها ، ويرسلون الدعوات إلى الأهل والمعارف لمشاركتهم في الذهاب لرؤية

فتاة جديدة لابنهم البكر. وناهيك بما تسدعه بعد عودتهم الغاشلة دائما من مختلف الأقاويل ، مدح وقدح ، وإعجاب وسخرية ، وشفقة ورناء ، تنقل من فم إلى فم ، ومن حي إلى حي ، حتى تصبح سير العائلات وأخبار الفتيات بين الناس قصصا لاثرثة والأقاويل .

وهذا الأمر زيادة عن أنه شائن وضعي ، فهو أيضا يشوه فكرة الزواج عند الشباب ويصورها أمامهم في صورة مخزية مخالفة للواقع في كل شيء .

وإني لو اتقنت من أن مثل هذا الابن بعد أن ألفت عليه فكرة الزواج ، وعاش زمنا يتأمل في حقائقها ، سوف تدفعه الحياة رغما عنه يوما ما إلى سلوك الطرق الملتوية في اختيار شريكه حياته ، ولا يبعد أن تكون تلك الفتاة الموعودة أول من يقابلها في الطريق دون التطلع إلى قيمتها الحقيقية أو مركزها الاجتماعي .

وعند اختيار الزوجة يجب ألا ندع للظواهر الكاذبة كل الأثر في نفوسنا ، فغتر بالجمال الخارجي والاناقة المصطنعة ، دون التطلع إلى ما يخفيه ذلك الستار الزاهي من حقائق . فكم من جمال ضل الناس مع تياره وغرقوا في بحاره ، فإذا بهم يتطردون بما تقع عليه أعينهم من جيف وتن . وكم من جميلة جعلت — بقبح نفسها — من حياة زوجها مذلة وهوانا .

فالجميلة حقا هي من جمعت إلى جانب تناسب قسايتها جمال النفس وصفاء الروح . ومن أقوال الشاعر جبران في حقيقة الجمال "إنه في قلب من يشأقه أسنى مما هو في عين من يراه" وهذا لأن جمال المرئيات زائل بزوالها ، أما الجمال الكائن في دجائل النفوس ، فهو ذلك الذي نشتاقه دائما ولا نعرف ماهيته .

وليس بالعسير على الرجل الناجح أن يجد ضالته المنشودة في الحياة ، كما أنه ليس بالعسير أيضا أن يكون رب الأسرة موفقا ، إذا أمكنه أن يلم ببعض قواعد الحياة الزوجية السعيدة وهي في الواقع بسيطة غاية البساطة لا تستحق إلا مجهودا عاديا للعمل بها .

فالرجل كي يوفق في حياته الزوجية ، عليه أن يعمل قبل كل شيء على الاحتفاظ بمكانته كرب أسرة محترم ، وهذا لن يتوفر له إلا إذا كان مهذبا قوى الشخصية ، يمكنه أن يترك دائما أثرا مشرفا في قلوب من يرونه ، فلا يكون مهذارا دائم الضحك والعبث ، ولا ماجنا كثير الصخب والمرح ...

والنوسط في كل شيء جميل ، ولكل شيء وقته الملائم ، وأن يكون مع زوجته كريما في حزم ، رضى الأخلاق بغير لين أو تهاون ، متسامحا دون إفراط ، يعرف ما يجب أن يقال ولا يقال ، وما يجب أن يصاح للحياة وما لا يصلح ، يزن دقائق الحياة بميزان العاقل البعيد النظر ، ويقدّر أقواله وأفعاله قبل أن يقدم عليها ، وأن يعتقد أنه ليس إلا امرأة

تنعكس على صفحتها شخصية زوجها ، فإن كانت تلك المرأة مصقولة نقية العنصر ، أظهرتها في صورة مشرقة مهذبة ، وإن كانت رخيصة غياء خلعت عليها ظلمة وتشويهها .

ومما يخلق أكثر المشاكل العائلية أن يكون الزوج كسولا متبلدا ، إن قضى بعض الوقت بالمنزل فلا عمل له فيه إلا الأكل والنوم ... أو مستهترا يقضى كل أوقاته في الخارج ولا يزور البيت إلا لما - ين يود أن يملا جوفه بالطعام .

تلك حالة نلمسها في أغلب بيوتنا المصرية ، إن دلت على شيء فلي أن بعض الرجال مازالوا يقدمون على الزواج وهم جاهلون كل الجهل بأبسط واجباته غير مقدرين حقيقة مسؤولياته . ولعمري لا يستحق هؤلاء أن يكونوا أزواجا وآباء ، ولا غرو في أن تكون حياتهم الزوجية دائما تعسة فاشلة .

فليس رب الأسرة إلا هذا الذي يعرف كيف يكون نوتيا ور بانا يدير دفة أسرته بدقة وحزم ويحافظ عليها من أن تعصف بها الأنواء ، لذلك الذي يترك كل شيء للزوجة ويعتمد على مجهودها الفردي . فتعتمد سلطته كزوج وأب ، ويفقد احترامه في نظر الجميع .

وإن هذا الإهمال من جانب الزوج يشجع الزوجة على إهمال واجباتها نحو منزلها ونحو أبنائها ، هؤلاء الأبناء الذين يشبون في محيط يتخبط في ظلمات من سوء التفاهم ، يهيئهم عن عناية الأم ويقتطع الأنث . فسوء نسلهم ويتشوه مستقبلهم ، ويكونون نواة فاسدة في قلب المجتمع .

فرب الأسرة ملزم باستطلاع كل دقائق المنزل والإلمام بكل ما يدور في محيطه يوميا ، وليس في هذا أي ضياع للوقت كما يتصور بعض الناس ، أو أن فيه خروج من الرجل عن حدود مسؤولياته ، فأشراف الرجل على أسرته واجب كواجب البستاني نحو حديقته ، إن تعهد بها بالسقي أينعت ، وإن أهملها جفت وذوت .

وإن المرأة لو علم الناس لمخلوق وادع رقيق في حالة دائمة إلى مساعدة الرجل وتلقى نصائحه مهما كانت درجة ثقافتها ومعرفتها ، لأنها ليست إلا طفل كبير في حاجة إلى الرعاية المستمدة ، ومن واجب الرجل أن يشملها بتلك الرعاية وأن يبذل لها النصيح والإرشاد من حين إلى حين ، على أن يكون رقيقا في إبداء تلك النصائح بحيث لا يجرح كبرياءها أو يمس كرامتها .

ولا يحط من قدر الرجل في عيني زوجته أكثر من أن يعمد إلى تقريرها بكلمات نابية تتعبد على تبادلها وإياد على مر الأيام ، وناهيك بما تلوكه السنة الخدم من القمصين والمبالغات حول هذه الأمور في الطرق والبيوتات الأخرى .

فالرجل العاقل يمكنه أن يعمل على تكوين شخصية زوجته كما يحب بما يبيده أمانها من عادات وما يظهره في أقواله من آراء .

وكما كان الرجل عائليا يميل إلى الحياة الوداعة المستقرة كلما التفت حوله قلوب أفراد أسرته وكانت له بينهم مكانة عظيمة ومحلا ملحوظا يظل شاغرا كلما غاب عنه . ومن الغريب أن يتذرع بعض الرجال في غيابهم الدائم عن منازلهم بحجة قتل الوقت مع الأصدقاء بلعب الورق والمسامرة ؛ مع أنه في إمكان الرجل العاقل أن يستعير دائما بزوجه في مشاركته سائر ألعابه بالليل من الإرشادات ، فإذا كان ولا بد من قتل الوقت ، مع أن الوقت هو الذي يقتلنا لا نحن ، فمن اللائق أن يكون ذلك مع الزوجة حيث يكتسب الزوج شريكا مخلصا لا جليسا منافقا ، يتناوله وراء ظهره بالفدح ولاذع الأقاويل .

ولا شك أن هذا الأمر منه سيفخر البيت بالسعادة الدائمة ، ويشيع في جوّه الهبة والسرور ويجعل الزوجة تتفانى في إرضائه والعمل على إحاطته بكل أسباب الراحة والهناء .

على أن يحاول دائما إبداء إعجابه بما تعمل زوجته ، فيثني على طريقتها في تنسيق الأثاث ، وانتقاء ألوان الطعام ، واختيار ملابسها وطريقتها في تصنيف شعرها إلى آخر ما يلائم قلب المرأة سعادة واطمئنانا ، لأن ذلك يشجعها على بذل كل مجهود للوصول بنفسها إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة الكاملة ...

ويجب عليه أن لا ينسى ضرورة إهدائها هدية بسيطة في المناسبات ، تشعرها بحبّه لها واهتمامه بآرائها ، وقد يكون لباقة من الزهر أو كتاب مشوق رغم تفاهة ثمنها أثر جميل في نفس الزوجة المثقفة .

وإذا مرضت يوما وأقعدها المرض عن أداء واجباته فلا يظهر لها تأفقا وامتناعا ، وليذكر مدى ما كانت تبذله من جهد كي توفر له السعادة والهناء .

وإني أرى قبل أن أترك هذا الموضوع أن أعرض أيضا لحولاء الذين قد سرى في نفوسهم داء تعدد الزوجات فانساقوا وراء رغباتهم الدنيئة وجشعهم المرذول حتى أصبحوا يرون في كل زواج جديد هواية مألوفة .

فالواحد منهم يظن أنه بتمتد زوجاته يبحث بينهن عن مثله الأعلى وسعادته المنشودة ومع ذلك فهو خاطيء يمّوه على نفسه وعلى الناس ، وإني أبشره بالفشل الذريع وتولى شبح السعادة عنه مهما تلمسه في ظلماته ، فالنساء جميعهن نساء مهما حاول الرجل تفضيل بعضهن على بعض ؛ وأخلاقه وطباعه محيطة هي التي تسعده وتثقيه ، وليس يستحيل على كل رجل أن يخلق من زوجته نموذجة ووحى آماله .

وتعمّد الزوجات لا يمكن أن يخفى منه الرجل غير الحسرة الدائمة والألم المرير ، فإدام الرجل لا يعرف كيف يسير سفينة حياته بامرأة واحدة فهو بالأحرى سيكون عاجزا عن ذلك مع اثنتين أو ثلاث .

وأن هذا الذى قد جعل الزواج تجارتها ، متناسيا كل شعور بانسانيته ، لأولى به أن يكون حيوانا يعيش بين العجاوات .

وانى كواحدة من بنات جنس أؤكد لكل رجل بأن امرأة المزاوج لا يمكن أن تكون مخلصه له مهما كانت درجة ثقافتها وبيئتها ، وهذه ولا شك مسألة لاتخفى على كل من لديه القليل من الفطنة والذكاء .

وها أنذا أسوق لكم مثلا بسيطا تجاورنا عائلة ربها ذوجتين ، أولاهما غير مثقفة ، والأخرى وهى الجديدة ذات ثقافة عالية ، ما ذهبت الأولى مرة لطبيب الأسنان إلا وذهبت الثانية لطبيب الأنف والحنجرة ، وما اشترت الثانية ثوبا جديدا إلا ومزقت الأولى أحسن ثيابها وأعطتها للخدم كي يكون لها نصيب الثانية من شراء الثياب ، وناهيك بما يحدث للزوج المسكين إذا أقعده المرض يوما عند إحداهما فلم يذهب إلى الأخرى فى ميعاده المحدد ، وما يتم به من تفضيل إحداهما على الأخرى مما يقيم عليه الدنيا ويقعدها .

ولا يمكنك أن تدخل منزلا كهذا دون أن تتصدع رأسك بختلف الأقاويل المملة من كل من الزوجتين عن الأخرى مما يجعل زيارتهما مموجة لاشئ فيها إلا الحديث عن الزوج الأبله الذى وضع نفسه مختارا بين يدي متنافستين قد جعلهما الحقد شيطانان فتغننا فى تمزيقه كل شئاء قدرتهما على الكيد والتنمر ...

وما لنا نذهب بعيدا وأمامنا المحاكم الشرعية بما تنخر يوميا من قضايا النساء ومشاكلهن العديدة التى يخلقها بعض الرجال بقصر نظرهم وغفلتهم .

إن المجتمع لا يطلب من الرجل شيئا أكثر من أن يكون رجل ضمير ، رجلا عادلا يدرك ما يقتضيه العادل والشرف من واجبات ومسئوليات .

ولا شك أن اليوم الذى يستيقظ فيه فى الرجل الضمير ، سيكون يوما يسعد فيه المجتمع وتستقر أحوال الأسرة ، ولا يبقى هناك مجال لقوانين أو تشريعات ما